

عبد الله شريط : فيلسوفاً ، وأديباً ، وصحافياً وطنياً .

بقلم أ . د / عبد الحميد خطاب ، جامعة الجزائر . 2 . .

بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، وبالله وحده

نستعين ، وبعد :

إذا كان المقصود من ذكر وتسجيل فحوى هذه المقالة الصغيرة مجرد لفت نظر ، من جانبنا، إلى ما كان من فاعلية جادة ومجهود متميز طموح لزميلنا المرحوم الأستاذ الدكتور " عبد الله شريط " ، الذي انتقل إلى رحمة الله ، مع مجموعة من الزملاء المنتمين إلى قسمنا ذاته ؛ أي قسم الفلسفة ، وهو القسم الذي يقول فيه رئيسه الأستاذ الدكتور " عبد العزيز بن يوسف " كلمة حقّ باسمنا جميعاً : " ما كان لقسم الفلسفة أن ينسى أساتذته الذين توفّوا . رحمة الله عليهم جميعاً . ، وقد تركوا بصماتهم في توجيه مستقبل القسم ورسم أهدافه " ، ويذكر منهم الأستاذ " عبد الحكيم هميسي " ، والأستاذ " علي علواش " ، والأستاذ " كريبع لنبهاني " ، والأستاذ " حمودة سعيدي " ، والأستاذ " عبد الله شريط " ، وأخيراً الأستاذ " عبد الرحمن سماتي " . ويستمرّ في كلامه النّافذ الحقّ قائلاً : " لقد كان كلّ هؤلاء نماذج للتقاني في العمل الجاد ، وفي بناء تصورات جديدة دفعت بقسم الفلسفة إلى قطع خطوات كبيرة في بناء نفسه ، وبناء كفاءات جديدة تجسّدت في الإنتاج الفلسفي الجاد ، وفي النشاط المتواصل للقسم في إطار الملتقيات الوطنية والدولية ، والندوات والمحاضرات " (1) .

أجل ! رحمة الله عليهم جميعاً ، وجزاهم الله أحسن الجزاء على ما بدر منهم من أعمال تربوية واهتمامات فكرية ، وانشغالات علمية ، وأنشطة أكاديمية .

وإذا كانت مجلة " دراسات فلسفية " التابعة لقسمنا هذا قد استأنفت إصدار أعدادها ابتداءً من " العدد السابع " ، فهذا يعني أنها كانت منقطعة أو متوقفة مدة سنوات ، بعد استئناف أو إنجاز ستة من أعدادها .

وبمناسبة هذا الاستئناف أو هذا البعث الجديد الذي نرحب به جميعاً لا بدّ من الإشارة إلى أنّ اثنين من زملائنا المرحومين السابقين ، وهما الأستاذان : الدكتور " حمودة سعيدي " ، والدكتور " عبد الله شريط " ، كانا المسؤولين الأولين عن هذه المجلة الفلسفية ؛ الأول كمدير إداري مسؤول عنها بصفته رئيساً للقسم (أو مدير معهد) ، والثاني كرئيس تحرير لها ؛ وذلك منذ عددها الأول سنة 1996 .

وإذا كان كلامنا هنا يتعلّق بالأستاذ " شريط " ، دون أن ننسى إسهامات الزملاء الأساتذة الآخرين ، فإننا نقول إنّ الأستاذ " شريط " كان ، ولا شكّ ، من هؤلاء الذين أسفر عملهم الأكاديمي ، وانشغالهم الفلسفي ، واهتمامهم الأدبيّ ، وسلوكهم التربوي ، ونشاطهم المعرفي ، والتزامهم الثوري الوطني ، عن التميّز برصيد ثقافي وفكري عميق متنوّع وثري .

وإذا كان زميلنا المرحوم الأستاذ " شريط " من المثقّفين الوطنيين الحقيقيين ؛ لأنّه اشتهر ، في مرحلة من مراحل حياته ، بالدفاع عن اللّغة العربية وإقرار التعريب ، في بلده الجزائر ، بعد الاستقلال ، التي كانت فيها الفرنسية تحتلّ مقام الصدارة ؛ فلا شكّ أنّه ليس بذلك المثقّف التقليدي الخاضع لتوجّهات السلطة والنّظام الحاكم في البلاد ، كما اشتهر عنه بعد تلك المناظرة الشهيرة التي جرت بينه وبين الأستاذ " مصطفى الأشرف " بخصوص مشكلات التربية والتعليم في الجزائر بين أوت وسبتمبر سنة 1977 م ، حيث تمّ تصنيف الأستاذ " الأشرف " كمثقّف حدائي ؛ لأنّه دعا إلى الازدواجية والتعريب المرحلي . بينما نُظر إلى الأستاذ " شريط " ، الذي كان مستغرقاً في الدفاع عن التعريب من خلال رفضه الازدواجية اللّغويّة على حساب اللّغة العربيّة الوطنيّة ، على أنّه مثقّف تقليدي محافظ .

ولا شك أن هذا يعني أن الحادثة كان يُنظر إليها ، في ذلك الوقت ، من زاوية ضيقة تماماً ، وهي زاوية عالم اللغة وحسب ؛ وهي الزاوية التي من خلالها يُصنّف الدّاعي إلى الفرنسة كمتّقف حدائِي ، بينما الدّاعي إلى العربية والتعريب كمتّقف تُراثي تقليدي محافظ ؛ وهو ما ينطبق على زميلنا الأستاذ " شريط " . على أن ذلك من تحصيل الحاصل القول فيه : إنّ مثل هذا المعيار قاصر غير منضبط بانضباط النظرة العلميّة الصحيحة الشمولية والدقيقة ؛ لأنّه لا ينظر إلى الحادثة وفق عالم الآراء والمواقف والأفكار ، ورفض التبعية من خلال النزوع التراثي والوطني القومي ، وإنّما ينظر إليها من خلال عالم اللغة وحسب ، خاصة إذا كان الأمر يعني لغةً حداثيّة فعلاً كاللّغة الفرنسيّة .

على أن الأستاذ " شريط " لم يعتمد في موقفه التعريبي على المسألة اللّغويّة وحسب ، وإنّما اعتمد ، فضلاً عنها ، على سائر مشروعه الفكري المتكامل ؛ يأخذ من الفلسفة ، والأدب ، والمسوّغات الفكرية للرأي الشخصي ، وذلك لبناء الحادثة الوطنيّة المتوافقة مع التراث العربيّ الإسلامي .

وفي هذا المعنى بالذّات يقول بحقّ أحد الباحثين الشباب ، وهو السيّد " حميد عبد القادر " :
" تعرّض الدكتور " شريط " للإقصاء من الحظيرة الحداثيّة ، رغم أنّه استعان في ردّه على " الأشرف " بقيم شكّلت أساس التنوير الغربي ؛ مثل الشكّ الديكارتّي ، والعقل الأرسطي ، للدّعوة لهويّة ثابتة لا تتغيّر ، في مقابل هويّة " الأشرف " الخاضعة للتّغيير " . ويضيف قائلاً : " كانت حادثة الدكتور " شريط " تنطلق ممّا هو قائم للتطلّع إلى الثقافة الإنسانية ، وتعتمد على تحقيق التناغم بين النخبة والفئات الشعبيّة . بينما كان " الأشرف " ينظر إلى المسألة من زاوية مغايرة . لكن كليهما كان يلتقي عند مسألة ضرورة إخراج اللّغة العربيّة من بوتقة الرّوح المحافظة التقليديّة والنّمطيّة " (2) .

ولا شك أن هناك اختلافاً بسيطاً يكمن في أساس محتوى رأي الرّجلين في الموضوع ؛ فـ " الأشرف " يعتقد أن اللّغة الفرنسيّة ضرورية لتلقين العربيّة مبادئ الحادثة ، بينما يري " شريط "

" أنّ العربيّة تمتلك وسائل تطوير نفسها بنفسها ، ولا تحتاج ، والحال هذه ، إلى غيرها من اللّغات ، حتّى لو كانت مثل هذه اللّغات حديثة ومتطوّرة كالفرنسية .

وهكذا ، يصبح الأستاذ " شريط " صاحب " معركة المفاهيم " أديب الحداثة على مستوى اللّغة ، وفيلسوف التراث على مستوى الفكر ، يمتلك من القدرة على فرض الرأي والتأثير ما لا يُستهان به في الفضاء الثقافي الجزائري على وجه الخصوص ، والقومي والمعرفي على وجه العموم .

ومع تأكيد وجود هذا الرصيد الفكري والفلسفي ، والأدبي واللّغوي ، الفعّال والمتميّز لزميلنا " شريط " الذي تغمّده الله بوسع رحمته ، يمكن القول إنّ المرحوم ، فضلاً عن كونه كان أستاذاً جامعياً ، ساهم في تكوين المربيين عبر الأجيال ، وتخريج الإطارات والباحثين عبر الأزمان ، ونشر الثقافة الفلسفية ؛ وهو الأمر الذي توقّفت عنده مداخلات زملائنا في ندوة فلسفية جامعية خاصة(3) ، فإنّه كان ، قبل ذلك كلّه ، قد وهب حياته لخدمة الوطن حين كان الوطن في حاجة إلى مثل هذه الخدمات ؛ وذلك عن طريق الرسالة النبيلة المتمثّلة في الرّصد الصّحفيّ والإسهام الإعلامي بأمانة وصدق وإخلاص لقضيّة الثّورة الوطنيّة التحريرية المباركة كما انعكست في الصحافة الدوليّة منذ انطلاقتها سنة 1955 ، إلى نهايتها سنة 1962 .

ولا شكّ أنّ عملاً جاداً كهذا يقتضي مجهوداً جبّاراً مرفوقاً بالعناية والمثابرة ؛ إذ يتطلّب جمع المادة الصّحفية من مختلف مصادرها ، وترجمتها ، وغربلتها ، وترتيبها ، وتبويبها ، وهو أسلوب من أساليب العمل الموسوعي الذي أصبح في أيّامنا هذه نادراً تماماً ؛ وهو القائل في ذلك في مقدّمة كتابه " الثورة الجزائرية في الصحافة الدولية " : " أمّا فيما يتعلّق بهذه المقالات المنقولة عمّا يُكتب في الصّحف الأجنبية وبعض المجلّات السياسية المتخصّصة عن حرب التحرير الجزائرية ، فقد كانت تجري متابعتها بحرص وانضباط ، وتُنقل يوماً بيوم إلى صحيفة تونسنية هي جريدة " الصباح " التي فتحت أعمدتها لهذا العمل الكبير المتواصل

طيلة سبع سنوات ؛ تبدأ من أول جانفي 1955 ، (وتستمرّ) إلى جويليه 1962 " (4) .
ثمّ يضيف قائلاً : " والواقع أنّي كنت أنقل عن هذه الصحف كلّ ما توفّر فيها من القيمة
الصّحفية والفكرية الجادة ، سواء كانت من صحف اليسار التي تدافع عن القضية الجزائرية
وتنتقد سياسة الحكومة الفرنسية لأنّها سياسة استعمارية تجاوزها الزمن وتطوّر العالم المتقدّم
، أو من الصحف اليمينية التي تعمل على تعزيز المصالح الاستعمارية والدفاع عنها بالحقّ
والباطل ، مشفّعاً نقلها ببعض الردود التي أراها ضرورية ، ولا أغفل إلاّ ما كان في مستوى
ضعيف من كلا التيارين " (5) .

ويردف قائلاً : " وأهمّ ما كان يميّز كتابات الصحف الفرنسية بالخصوص شموليتها
واستيعابها لكلّ عناصر المشكل الجزائري من جانبيه الرئيسيين الفرنسي والجزائري ، الدّاخلي
والخارجي لكل منهما ، والسياسي والعسكري ، والاجتماعي والدبلوماسي ؛ فيشمل ما تعلّق
بأزمات الحكومة الفرنسية وخلافات قادة الثورة الجزائرية ، إلى تداعيات

المشكل في الحلف الأطلسي وفي الأمم المتّحدة ، إلى اضطرابات الشرق الأوسط والعلاقات
مع أقطار المغرب العربي ، إلى مقابلات وأحاديث مع القادة المحليين للثوار داخل الجزائر ،
أو وصف دقيق ومؤثّر لحالة المدنيين الجزائريين في المدن والقرى ، إلى اهتمام قادة العالم
بالمشكل الجزائري من " خروتشوف " ، إلى " جمال عبد الناصر " ، و " الحبيب بورقيبة " ،
وخير القادة الأمريكيين ، ومناورات " ديغول " (6) .

ويتابع كلامه قائلاً : " وكانت وسائل الإعلام التابعة لجبهة التحرير تتناول هي أيضاً هذه
القضايا والمشكلات ، ولكن بالتزام شديد ، وابتعاد عن كلّ ما هو نقد للثورة ورجالها ، أو
تتناول لبعض أخطائها ، ممّا أفقدها مصداقية لدى القراء الجزائريين . بينما تتناول الصحف
الأجنبية كلّ موضوعات الحرب الجزائرية الفرنسية بحريّة ، إلاّ ما كان يمسّ المصالح العليا
للدولة الفرنسية ، كما تتميّز باطلاع مراسليها وكتّابها على الأحوال لداخلية للجزائريين
فيصفونها بدقّة ؛ وهو ما يزيد من رغبة القراء في معرفتها " (7) .

هذا بالنسبة إلى المقالات والصُحف . أمّا بخصوص الموضوعات التي تناولتها هذه الصحف والمقالات ، وكيفية تعامل الأستاذ " شريط " معها من أجل الإفادة والتوجيه، فيقول: " هذه أهمّ الموضوعات التي استغرقتها مقالات كُتبت بأرفع الأقلام السياسية في عصرها ، وقد أنفقتُ في اختيارها ، من بين عشرات من أمثالها ، أكثر ممّا أنفقته من الوقت والجهد في ترجمتها اليومية " . ثمّ يضيف : " كنت أستفيد من قراءة ما أنقله وما لا أنقله في كتابة ، أو بالأحرى ، إملاء التعليق على الأخ المرحوم " عيسى مسعودي " ليلقيه بصوته النّادر المتميّز في ركن " صوت الجزائر " بالإذاعة التونسية ، كما أستفيد منه في كتابة تعليق يومي عن القضية الجزائرية في نفس الصحيفة تحت عنوان قار بتوقيع " فلان " (8) .

ومن المعلوم أنّ فعل الثورة ذاته إذا كان يُنبئ عن القيم الوطنيّة الرّاسخة والخالدة ، فإنّ الكتابة عن الثورة ذاتها ، والدفاع عنها ، لا يقلّ قيمة ولا أهميّة عن الفعل الثوريّ ذاته ؛ لأنّها ، هي أيضاً ، جزء أساسي أو جانب راسخ من هذا العمل الثوري ؛ فهي قيمة من قيمه العليا . وكما كانت " سنفونيات " " بيتهوفن " عن حروب " نابوليون " لا تقلّ أهميّة عن الحرب نفسها ، فكذلك كتابات زميلنا الأستاذ " شريط " عن الثورة الجزائريّة لا تقلّ أهميّة عن فعل الثّوار الحقيقيّين أنفسهم (9) .

ولا شكّ أنّ هذا هو الأمر الذي جعل الثّوار الحقيقيّين والمفكرين الوطنيّين يعترفون بقيمة هذه الكتابات الصّحفية الوطنيّة التاريخيّة والثورية ، ويشيدون بفضل صاحبها ، وفي طليعة هؤلاء جميعاً المجاهد الكبير فخامة رئيس الجمهورية السيّد " عبد العزيز بوتفليقة " حينما يضع تصديره الخاص لهذه الكتابة عند صاحبها ، فيقول بحقّ :

" لقد أصاب صاحبنا الدكتور " عبد الله شريط " في اختيار موضوعه ، وحقّق هدفه في رفع اللبس والالتباس العالق في الأذهان ، خاصّةً في أيّامنا هذه ، بتقديم الدليل . من باب وشهد شاهدٌ من أهلها . على عظمة الثّورة الجزائريّة ، وعظمة رجالها " (10) .

كما يقول فيه ، أيضاً ، معالي وزير المجاهدين السيّد " محمد شريف عبّاس " ، حين يذكر الذين أوقفوا حياتهم على خدمة أوطانهم ، قولاً جامعاً للخصال :

" ومن هؤلاء الرجال الذين نذروا أنفسهم خدمة للجزائر أستاذنا الفاضل الدكتور " عبد الله شريط " ... (فهو) رجل اختار النضال الفكري والمعرفي منذ شبابه ؛ منذ كان كاتباً صحفياً يدافع عن قضية وطنه بقلمه ، فمجاهداً فذاً ، ومناضلاً مخلصاً ، وأستاذاً بجامعة الجزائر بعد الاستقلال . " ويتابع كلامه عنه قائلاً : " وقد زهد في المناصب الإدارية ، ولم تبهره بهرجة المسؤولية ، بل اختار أن يكون قريباً من طلبته ؛ يلقن ويوجّه ويكتب المقالات ، ينشر في الصحف وينجز التآليف . ويكفيه فخراً أن أنجز موسوعةً كاملةً عن الثورة الجزائرية في الصحافة الدولية في عدّة أجزاء ، تفضّلت وزارة المجاهدين بطبعها " (11) ، وقد صدرت سنة 2010 .

وإذا كنّا نكتفي بهتين الشهادتين ، فلا شك أنّ معرفتنا لزميلنا المرحوم ، ومعايشتنا له مهنيّاً وفكريّاً تتبّنان عن شذرات من محيط يعجّ بالمناقب .

وإذا كان الأستاذ المرحوم ، أخيراً ، قد غادر عالم الدنيا الفاني ببذنه ، فلا شك أنّه دخل عالم الخلود بفكره ونضاله ، ممّا يجعل أفكاره وآراءه ، وخصاله وتوجيهاته حاضرة بيننا على الدوام .

وإذا كانت الأفكار الفلسفية الحقّة لا تموت بموت أصحابها ، فإنّ الأستاذ الدكتور " عبد الله شريط " ، الذي رحل عنا بالأمس ، لا يزال حاضراً بيننا وبين كلّ من يُعنى بالفكر الفلسفي على وجه العموم ، والفكر الوطني على وجه الخصوص .

الهوامش :

(1) - مجلة دراسات فلسفية ، العدد السابع ، كلمة العدد ، الدكتور " عبد العزيز بن يوسف " ، ص 7 ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية ، جامعة الجزائر . 2 . ، سنة 2011 .

- (2)- مناظرة " الأشرف . شريط " ، والتأسيس للمغالطات ، بقلم : " حميد عبد القادر " ، جريدة " الخبر " اليومية الوطنية ، الصفحة الثقافية رقم 23 ، الخميس ك 1 / 3 / 2012
- (3)- وقعت في المدرج الجديد لكلية الآداب ، جامعة الجزائر . 2 . ببوزريعة ، في ، وقد حضرها أساتذة ومفكرون نذكر منهم : الأستاذ الدكتور " أبو عمران الشيخ " رئيس المجلس الإسلامي الأعلى ، والمناضل الوطني الكبير السيد " عبد الحميد مهري " الذي انتقل إلى رحمة الله بعد ذلك ، وغيرهما كثير .
- (4)- عبد الله شريط : الثورة الجزائرية في الصحافة الدولية 1955 ، ص 12 ، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع ، الجزائر 2010 .
- (5)- المصدر نفسه ، ص 13 .
- (6)- المصدر نفسه والصفحة .
- (7)- المصدر نفسه ، ص 13 . 14 .
- (8)- المصدر نفسه ، ص 20 .
- (9)- وكتابة الشعراء والفنانين ، ومنهم " مفدي زكرياء " المجسد شعره في " النشيد الوطني " أدخل إلى العمل الثوري ، وإعلاء للقيمة الوطنية .
- (10)- الثورة الجزائرية في الصحافة الدولية ، ص 6 .
- (11)- المصدر نفسه ، ص 8 .